عن المرأة واللغة

الأستاذ الناقد المعروف عبد الله محمد الغذّامي هو أحد النقاد العرب الكبار في هذا النصف الأخير من قرننا العشرين الموشك على الأفول. وأحد أهم كتبه النقدية وأمتعها هو كتابه (المرأة واللغة) الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٩٩٦ وصدرت طبعته الثانية عام ١٩٩٧ عن المركز الثقافي في الدار البيضاء بالمغرب. ثم صار هذا الكتاب واحداً من ثلاثة كتب عن الموضوع ذاته.

ويقوم هذا الكتاب على فكرة أساسية مؤداها: أن اللغة التي هي أنوثية في الأصل قد استولى عليها الرجل محولاً إياها إلى (قلعة) خاصة به، وفرض على الأنثى أن تعيش على هامشها غير متروك لها منها إلا ما يناسب الرجل!..

ويلتقط الأستاذ الغذّامي الفكرة الأساسية تلك، بدئياً، من قولةٍ لعبد الحميد بن يحيى الكاتب- كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية- إذ يقول: (خير الكلام ما كان لفظه فحلاً ومعناه بكراً)، ثم يستنتج من تلك القولة وجود (قسمة ثقافية يأخذ فيها الرجل أخطر ما في اللغة وهو "اللفظ" بما أنه التجسد العملي للغة والأساس الذي ينبني عليه الوجود الكتابي والوجود الخطابي لها، فاللفظ فحل "ذكر"، وللمرأة المعنى، لا سيما وأن المعنى خاضع وموجه بوساطة اللفظ، وليس للمعنى من وجود أو قيمة إلا تحت مظلة اللفظ).

وقد يرى كثيرون أن في هذا الالتقاط لهذه الفكرة، وفي تأسيس هذه القسمة، كثيراً من التعسف غير الموضوعي، سيشيد عليه وعلى نواتجه الأستاذ الغذامي كتابه الممتع كله.. وربما هم في ذلك على حق كبير. ولكن، لنترك الآن هذا الأمر مؤقتاً ولنتابع مع ناقدنا، اللماح الألمعي بالفعل، ما يذهب إليه تالياً إذ هو يكمل:

(هذه قسمة أولى أفضت إلى قسمة ثانية أخذ فيها الرجل "الكتابة" واحتكرها لنفسه وترك للمرأة "الحكي"، وهذا أدى إلى إحكام السيطرة على الفكر اللغوي والثقافي، وعلى التاريخ من خلال كتابة هذا التاريخ بيد من يرى نفسه صانعاً للتاريخ).

ويبدو استنتاج هذه القسمة من سابقتها هدفاً لذاته، وإذا حاولنا المطابقة بين القسمتين وجدنا أن التعسف غير الموضوعي في قضية سيطرة اللفظ على المعنى يقود إلى موضوعة (كتابة التاريخ ذكورياً بما هو لفظ لا وجود للمعنى إلا تحت مظلته)، وهنا نعود إلى ما سبق أن تركناه مؤقتاً وهو [التعسف في علاقة متخيلة للفظ "الفحل" بالمعنى الذي هو "أنوثة" تلتغي ما لم تتدرج في الفحولة الذكورية]:

–ترى، ما الذي يساويه اللفظ إن لم يكن مطية للمعنى وحاملاً له؟! أليس المعنى هو الذي يفترض لفظه بالحدود التي يتطلبها، وحين تقال ألفاظ غير مقيدة بالمعنى تصبح مجرد أصوات عشوائية لا قيمة لها؟!

إن أطروحة الجاحظ حول اللفظ والمعنى ظلت دائماً مثار شك وجدل فكري وتطبيقي، ولعل شعر أبي تمام ثم المتنبي بعده.. وأقوال المتصوفة وكتاباتهم منذ ابتداء التصوف إلى

نهاياته.. كل ذلك كان نقضاً لمقولة (إن المعاني مبذولة في الطريق).. وهذا كله ينقض –في نهاية المطاف– تلك القسمة الأولى التي اعتمدها الأستاذ الغذامي، ثم قسرها على أن تولد القسمة الثانية.

وتفتقر القسمة الثانية التي هي صحيحة بنسبة كبيرة: [أخذ الرجل "الكتابة".. وترك للمرأة "الحكي"] مع ما يتبعها بخصوص السيطرة الذكورية على الفكر والتاريخ، إلى (النظرة الطبقية) لحركة التاريخ ذاته. ففي التاريخ العام حتى زمن قريب نسبياً كانت هناك فئة قليلة من المجتمع هي طبقة الحكام والمتمولين وحاشياتهم ممن يبرعون في هذا الميدان المعرفي أو ذاك – حسب علوم أزمنتهم– فيلحقهم الحاكمون بالحاشية طوعاً أو كرهاً، ويصبحون بالتالي جزءاً من تلك الطبقة!..

وإذا فليس الرجل عموماً هو من يكتب التاريخ، بل طبقة من الرجال فقط، أما "الحكي" فهو للنساء والرجال معاً في بقية المجتمع. ولهذا سنرى أن التطبيق الذي يجريه الأستاذ الغذامي عبر دراسته "الأنثوية" لألف ليلة وليلة يتجاهل أن "الذكر/ شهريار" ملك، وأن "الأنثى/ شهر زاد" هي ابنة وزير!..

فالأنوثة المنتصرة هناك هي "أنوثة طبقية". ولهذا دلالته، حتى بالنسبة لقصة الجارية (تودد) التي يدرسها من المنظور غير الطبقي وفقاً لقسمتيه الأُولَيْين اللتين عرضناهما! فتلك الجارية هي جزء من الحاشية –جارية متمول أفلس– ولهذا لا تباع إلا لهارون الرشيد.. وانتصارها في مجلسه على جميع أهل العلوم وأرباب الصناعة المعرفية، بمن فيهم الفيلسوف المعتزليّ إبراهيم بن سيار النظام، ليس انتصاراً عاماً للأنوثة على

الذكورة، بل هو انتصار "نسوة" الحاشية وحدهن على أهل العلم بمن فيهم النظام الذي كان متهماً بالمروق من الدين وقتها من قبل السلطة الحاكمة!.. أي أن الطبقة الحاكمة ذاتها هي التي تنتصر، حتى بوساطة جواريها، ناهيك عن حرائرها، على أهل العلم وعلى المجتمع ذكوراً وإناثاً في آن واحد!

على أن الأستاذ الغذامي يخلص من (قسمتيه) الأوليين إلى نتيجة يقررها بإثباتها كيما يدرس نماذج من الكتابة الأنثوية المعاصرة، يقول الأستاذ الغذامي بعد ذكر "القسمتين السابقتين" مباشرة:

(وهنا تأتي المرأة إلى اللغة بعد أن سيطر الرجل على كل الإمكانات اللغوية، وقرر ما هو حقيقي وما هو مجازي في الخطاب التعبيري، ولم تكن المرأة في هذا التكوين سوى مجاز رمزي أو مخيال ذهني يكتبه الرجل وينسجه حسب دواعيه البيانية والحياتية).

وفي الواقع، ثمة ما يحيّر في هذا الاستنتاج العائم العمومي الذي سيشكل أساساً لفصول تخص معاناة ميّ زيادة وملك حفني ناصف (باحثة البادية) بخصوص عملية ممارستها للكتابة.. وتخص (استرجال) غادة السمان –والكلمة للأستاذ الغذامي– في عملية الممارسة تلك، بينما تتمتع أحلام مستغانمي "بنعمة!" تأنيث الكتابة في روايتها (ذاكرة الجسد) التي تقوم بدئياً على تخريب الرجل جسديّاً ونفسياً كي تجري "أنوثية كتابتها!" على يديه!! ولا يفوت الأستاذ الغذامي أن يعنون الفصل الذي خصصه لرواية أحلام مستغانمي المذكورة بعنوان (الخراب الجميل)!.. ولا يمكننا في هذا الحيز الضيق متابعة أطروحات الأستاذ الغذامي

بخصوص علاقة الأنثى باللغة حسب مآلاتها الذكورية.

ولكننا –بمعرفتنا أن اللغة حاملٌ ثقافي حيوي وديناميكي– نقر بأن محمولات اللغة في الصياغة المفهومية يغلب عليها (الطابع البطريركي) المختلف عن (الطابع الذكوري المعمم).. وهنا يلعب التغييب الطبقي التاريخي، وخلط الصياغة المفهومية بما عداها من إمكانيات الصياغة اللغوية، دوراً خطراً في إنشاء الأسس المنهجية والاستنتاجات التطبيقية عبر فصول هذا الكتاب.

إن اللغة، كمفردات، جاهزة –بكامل حيويتها وطاقاتها الديناميكية الكامنة– لأداء محمولات أخرى تخص العمق الاجتماعي التاريخي الحضاري العام.. وهي محمولات "ذكورية/ أنوثية" مشتركة، قابلة لتكيفات الصياغة حسب توجه حضاري تكاملي جديد بين الذكر والأنثى، دون افتعال مثل هذا القسر المنهجي الذي يخص المفهومات الشائعة أصلاً –أي يخص المعنى، حسب الأستاذ الغذامي– ولا يخص اللفظ في إفراده!.. فالمفهومات/ المعاني الشائعة هي الذكورية، خلافاً للأستاذ الغذامي وليس اللفظ بمحمولاته العمقية المتراكبة، والقابلة لإعادة الصوغ، دون أن تكون تلك "القطعيات المنهجية والاستنتاجية" التي يتبناها ذات شأن حقيقي في ذلك.

ورغم كل المآخذ على كتاب (المرأة واللغة) للأستاذ الغذامي والتي كان بالإمكان تفاديها لو أخذ الجانب الطبقي بعين الاعتبار، على الأقل، فإنه يظل كتاباً مهماً وبالغ الإمتاع والفائدة.

❑❑